العذاب السهل

[الوافر]

عَـذَابُـكِ يـا ابْـنَـةَ الـسّـادَاتِ سَـهْـلُ
وَجَـوْرُ أبـيـكِ إنْـصَـافٌ وَعَـدْلُ(١)
فَـجُـورُوا وَاطْـلُـبـوا قَـتْـلـي وَظُـلْـمـي
وَتَـعْـذِيـبـي فَـإنـي لا أَمَـلُّ(٢)
وَلا أسْـلُـو وَلا أشْـفـي الأَعـادي،
فَـسَـادَاتـي لـهُـمْ فَـخْـرٌ وَفَـضْـلُ(٣)
أُنـاسٌ أنْـزَلُـونـا فـي مَـكَـانٍ،
مِـنَ الـعَـلْـيَـاءِ، فَـوْقَ الـنّـجْـمِ يَـعْـلـو(٤)
إذا جَـارُوا عَـدَلْـنـا فـي هَـوَاهُـمْ؛
وَإنْ عَـزّوا لِـعِـزّتِـهِـمْ نَـذِلُّ(٥)

---

(١)، (٢) يخاطب الشاعر حبيبته؛ فعذابها عذاب حبيب، ولعلّه اختبار وامتحان يسهل على المحبّ احتماله في كل الأحوال، وهذا عذاب ذو طعم خاص ومذاقه حلو الطعم، وإن كان جور أبيها لا يحتمل، فهو عدل وإنصاف، وهو يدعوهم ليزيدوا في جورهم وظلمهم، بل إنه يرحّب بقتلهم إيّاه، فالملل لا يعرف له طريقاً.

(٣)، (٤) إن الشاعر لا يعرف للسرور ملجأً، وهو لن يسمح للأعادي بالشفاء، فليألموا، وبنو عبس ساداته إنهم أولو مجد تليد وفضل عظيم، وهم سبب ما هو فيه من المجد والفخار، حتى بلغ به المدى أن يطال النجم بيديه.

(٥) وإذا كان من طبعهم الظلم، قابل ظلمهم بعدله لمحبته لهم، وإن هم شمخوا بأنوفهم، فهذا من حقهم، وهم أهل له، فهو على استعداد ليخفض من كبريائه؛ وإنما يذلّ لعشيرته، وهذا أفضل أنواع التواضع.

وَكَـيْـفَ يَـكُـونُ لـي عَـزْمٌ وَجِـسْـمـي
تَـــرَاهُ قَـــدْ بـــقـــي مِـــنْـــهُ الأقَـــلُّ[١]؟
فـــيـــا طَـــيْـــرَ الأرَاكِ! بـــحَـــقّ رَبٍّ
بَـرَاكَ عَـسَـاكَ تَـعْـلَـمُ أيـنَ حَـلّـوا[٢]؟
وَتُـطْـلِـقُ عـاشِـقـاً مِـنْ أسْـرِ قَـوْمٍ
لَـــهُ فـــي حُـــبّـــهِـــمْ أُسُـــرٌ وَغُـــلّ[٣]
يُـنَـادُونـي وَخَـيْـلُ الـمَـوْتِ تـجْـرِي:
مَـحَـلُّـكَ لا يُـعَـادِلُـهُ مَـحَـلّ[٤]
وَقَـدْ أمْـسَـوْا يَـعـيـبُـونـي بـأمّـي
وَلَـوْنـي كُـلّـمَـا عَـقَـدُوا وَحَـلّـوا[٥]

(١) يتساءل الشاعر عن سبب ضعفه، فقد القوّة والعزيمة، ولم يبق له رصيد منها إلّا القليل.

(٢)، (٣) يخاطب الشاعر حمامات حطت على أغصان شجر الأراك سائلاً إيّاها بخالقها عمن رحلوا عن الحمى ومعرفتها عن مستقرّهم ومستودعهم ولعلّها تطلق في ذلك من أُسروا من قبل من هاموا بحبهم من قيودهم وأغلالهم. وفكرة خالق الكائنات فكرة إسلامية مما يجعل القصيدة منحولة.

(٤) إنهم يستغيثون بالشاعر في حالة الضيق ووقت الشدّة والخيل تجري تنذر بقصف الآجال، إنه مكانه الذي لا يستطيع امرؤ أن يملأه قوّة وشجاعة، فهلمّ النجدة تناديه. ولقد حتّم عليه الوزن أن يقول الشاعر «ينادوني». والمفروض أن تكون «يناديننني».

(٥) ومما يسيء إلى الشاعر أن قومه يعيّرونه بنسبته إلى أمه الزنجية تحقيراً وإيذاءً له عندما تنعدم حاجتهم إليه، وهم يتندّرون في أسمارهم ويتهامسون ويتغامزون متفكّهين ضاحكين، ولقد حتّم عليه الوزن أن يقول «يعيبوني». والمفروض أن تكون «يعيبونني».

لـقـد هـانَـتْ صُـرُوفُ الـدّهْـرِ عـنـدي،
وَهـانَـتْ أهْـلُـهُ عِـنْـدي وَقَـلّـوا[١]
وَلـي فـي كُـلّ مَـعْـرَكَـةٍ حَـديـثٌ،
إذا سَـمِـعَـتْ بـهِ الأبْـطَـالُ ذَلّـوا[٢]
قَـطَـعْـتُ رِقَـابَـهُـمْ وَأسَـرْتُ مِـنْـهُـمْ
وَهُـمْ فـي عُـظْـمِ جَـمْـعِـهِـم اسـتـقَـلّـوا[٣]
وَأحْـصَـنْـتُ الـنّـسَـاءَ بـحَـدّ سَـيْـفـي
وَأعْـدَائـي لِـعُـظْـمِ الـخَـوْفِ فـلّـوا[٤]
أُثـيـرُ عَـجَـاجَـهَـا وَالـخَـيْـلُ تَـجْـرِي
ثِـقَـالاً بـالـفَـوَارِسِ لا تَـمَـلّ[٥]
وَأرْجِـعُ وَهْـيَ قَـدْ وَلّـتْ خِـفَـافـاً
مُـحَـيَّـرَةً مِـنَ الـشّـكْـوَى تَـكِـلّ[٦]

(١) اعتاد الشاعر على مواجهة الصعاب والتغلّب عليها، ونتيجة لذلك ندر الصاحب الصادق الصحبة؛ فكل أهل زمانه لا قيمة لهم لما هم عليه من سيّئ الأخلاق والحسد.

(٢)، (٣) طارت شهرة الشاعر في الآفاق، فهو البطل الصنديد الذي لا يقهر، بيده راية النصر، وسيفه عنوان الظفر، لذا يكفي أن يسمع بذكره الأبطال حتى ترتعب نفوسهم ويشعروا بالهزيمة النفسية، وهو جزار يفصل الرؤوس عن أجساد أصحابها، فضلاً عمن يقع أسيراً بين يديه؛ وجموعهم مهما كثروا، فنظرة الشاعر إليهم أنهم قلة، لا يصمدون في وجهه.

(٤) وسيف الشاعر يحمي نساء بني قومه فهن محصنات آمنات لا يجرؤ امرؤ على استرقاقهن، أما أعداؤه فقد فرّوا منهزمين، فقد ملأهم الخوف منه رعباً وهلعاً، فما كان عليهم إلا النجاة جبناً.

(٥)، (٦) يجعل الشاعر جوّ المعركة مشحوناً بغيوم من الغبار الكثيف يعانق =

وَأرْضَـــى بـــالإهَـــانَـــةِ مَـــعْ أُنَـــاسٍ
أُرَاعـــيـــهِـــمْ، وَلَـــوْ قَـــتْـــلـــي أحَـــلّـــوا[١]
وَأصْـــبـــرُ لـــلـــحَـــبـــيـــبِ وَإنْ جَـــفَـــانـــي،
وَلَـــمْ أتْـــرُكْ هَـــوَاهُ وَلَـــسْـــتُ أسْـــلـــو[٢]
عَـــسَـــى الأيّـــامُ تُـــنْـــعِـــمُ لـــي بـــقُـــرْبٍ،
وَبَـــعْـــدَ الـــهَـــجْـــرِ مُـــرُّ الـــعَـــيْـــشِ يـــحْـــلُـــو[٣]

فدى لقومي نفسي

قال في إغارته على بني ضبة:

[الكامل]

عَـــفَـــتِ الـــدّيـــارَ وَبـــاقـــيَ الأطْـــلالِ،
رِيـــحُ الـــصَّـــبَـــا وَتَـــقَـــلُّـــبُ الأحْـــوَالِ[٤]

= السماء، والخيول تصول وتجول بفرسانها لا تملّ الحركة، ولكن لا بدّ من عودتها إلى مرابضها، فإذا بها تعود سراعاً وقد تخفّفت من فرسانها الذين وقعوا ضحايا ضربات البطل المغوار، ممّا جعلها تتساءل حائرة ما الذي حصل لفرسانها؟ وماذا نزل بهم؟

(١) من أنفة الشاعر وكبريائه أنه لا يقبل الإهانة، ولكنه يتجرّع مرّها إذا صدرت من بني قومه، بل إنه يراعيهم، ويقبل منهم أن يقتلوه، فلا يعترض على ذلك.

(٢)، (٣) إن الشاعر يصبر على من يحبّ، حتى في حالة الهجر والجفاء، فهو لن يتخلّى عن حبّه لمن يحبّ مهما بعُد، فلن يعرف السلوان أيضاً؛ إلّا إذا جاد الزمان بقرب، وانتهى الهجر، عندئذٍ يحلو له العيش وينقلب مرّ العيش حلواً لذيذ الطعم.

(٤) عفت: محت. من طبيعة ريح الصَّبا اللطف، ولكنها فعلت فعلها فمحت =